

مفهوم المفارقة في الأخلاق الرواقية
"دراسة تحليلية نقدية"

أ. مصطفى رمضان مصطفى محمود
معيد بقسم الفلسفة - كلية الآداب
جامعة الزقازيق

مقدمة:

ركزت هذه الدراسة على توضيح مفهوم المفارقة في الفكر اليوناني عند الرواقية نموذجًا، لا سيما في مجال الأخلاق؛ ذلك لأنها من أهم مباحثها؛ ومن ثم فقد كانت الرواقية- في أساسها- مذهبًا أخلاقيًا، إلا أننا نجد فيها الكثير من الآراء المتناقضة، والمثيرة للجدل، وهذا ما جعلها تتطوي على الكثير من المفارقات.

ويتمثل هدفنا في هذا البحث في إبراز جوانب المفارقة في موضوعات الأخلاق الرواقية، والتي تتمثل على النحو الآتي: مبدأ العيش وفق الطبيعة، وآراؤهم في الفضيلة، والانفعالات، وأوصاف الحكيم الرواقِي، وأخيرًا ننتقل إلى العلاقة بين الحرية والقدر، وسوف نستخدم في هذا البحث المنهجين: التحليلي، والنقدي.

أما عن تساؤلات البحث فهي على النحو الآتي:

- س ١: هل يتوافق مبدأ العيش وفق العقل مع نزعتهم المادية؟
- س ٢: هل يوجد توسط بين الفضيلة والرذيلة عند الرواقية؟
- س ٣: كيف تضمنت آراؤهم في الانفعالات على معنى المفارقة؟
- س ٤: إلى أي مدى كانت أوصاف الحكيم الرواقِي تتطوي على المفارقة؟
- س ٥: هل استطاعت الرواقية التوفيق بين الحرية والقدر؟

عناصر البحث:

- أولاً- مفهوم مصطلح المفارقة.
 - ثانيًا- معانى المفارقة في الأخلاق الرواقية.
 - ١- مفارقة الحياة وفق الطبيعة.
 - ٢- المفارقة في مفهوم الفضيلة.
 - ٣- المفارقة في مفهوم الانفعالات.
 - ٤- المفارقة في أوصاف الحكيم الرواقِي.
 - ٥- المفارقة في مفهوم الحرية وعلاقتها بالقدر.
- نتائج البحث.

أولاً: مفهوم مصطلح المفارقة Paradox:

ترجع كلمة Paradox إلى الأصل اليونانيّ، وهي تتكون من مقطعين: Para ويعنيّ الضد أو المخالف، و doxa ويعنيّ الرأيّ، وعليه يكون معنى كلمة المفارقة هو ما يصاد أو يخالف الرأيّ الشائع^(١).

يشير مصطلح المفارقة إلى الآراء المخالفة للمعتقدات المألوفة، والرأيّ المفارق لا يكون فاسداً، ولكنه مخالف لما يعتقدّه الناس، كما يُعرف المفارق في الفلسفة العربية القديمة بأنه الجوهر المجرد عن المادة، القائم بنفسه، مثل قولنا: الجوهر المفارقة^(٢).

كما تُعرف المفارقة بأنها برهان يبدو صحيحاً على استنتاج غير مقبول، أو هي استنتاج غير مقبول لبرهان يبدو صحيحاً، وهذان هما المعنيان المترابطان اللذان نستخدم فيهما مصطلح المفارقة في سياقات فلسفية مختلفة، وتوجد الكثير من المفارقات التي لها أهمية فلسفية واضحة، وأقرب مرادف للمفارقة نجده واضحاً في السياقات المنطقية بمعنى النقيضة^(٣) Antinomy، وتستخدم المفارقة بصورة أكثر عمومية لتشير إلى عبارة تبدو غير قابلة للتصديق بشكل لافت للنظر، ولكنه في الواقع ينقل حقيقة مثيرة للاهتمام^(٤).

وتشير المفارقات الرواقية إلى أقوالهم الأخلاقية المطلقة^(٥)، وهكذا بعد أن أوضحنا مفهوم المفارقة في الاصطلاح الفلسفيّ، ننتقل هنا إلى مفهوم المفارقة في مبحث الأخلاق عند الرواقية، وأبعادها المختلفة.

(١) مراد وهبه: المعجم الفلسفيّ، مادة: المفارقة، دار قباء الحديثة، ط٥، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٦١١ - ٦١٢.
(٢) جميل صليبا: المعجم الفلسفيّ، مادة: المفارقة، ج ٢، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٠٢.
(٣) لنقيضة Antinomy: تشير إلى تقابل قضيتين إما بالتضاد وإما بالتناقض، وظهر هذا المصطلح عند زينون الإيليّ، وعند افلاطون في محاوره "بارمنيدس"، وعند أرسطو وذلك في رده على حجج زينون، وكذلك ظهر عند كانط الذي وضع به التعارض بين العقل reason والفهم understanding. (انظر: مراد وهبه: المعجم الفلسفيّ، مادة: النقيضة، ص ٦٥٦).

(4) Thomas Mautner: A Dictionary of Philosophy, art: Paradox, Blackwell Publishers Ltd, Oxford, 1996, P.310.

(٥) عبد المنعم الحفنيّ: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مادة: المفارقة، مكتبة مدبولي، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٨٢٦.

ثانياً: معاني المفارقة في الرواقية^(١):

لقد احتلت الأخلاق مكانة بارزة في الفلسفة الرواقية، وذلك ما يتضح عن طريق تعريف الرواقيين للفلسفة بأنها ممارسة الفضيلة، والفضيلة صناعة واحدة لا تتجزأ، وهي أشرف الصناعات منزلة وأنبها، وهي تتلاءم وتتوافق مع طبيعة البشر، كما عرف سنيكا^(٢) الفلسفة بأنها المنهج المستقيم في الحياة، التي تجعلنا نحيا على الفضيلة، كما أنها صناعة نسلك بها السبيل القويم^(٣)؛ ومن ثم يتضح لنا أن تعريفات الرواقيين للفلسفة لا تخلو من الجانب الأخلاقي.

ولذلك نجد أن الطابع الغالب على الرواقيين، هو العناية بالأخلاق؛ فقد فصلوا وبينوا ما ذهب إليه سقراط من قبل، من أن الفضيلة علم، وقالوا: إن الخير الحقيقي يتمثل في أن يعيش الإنسان على نحو يتوافق مع الطبيعة أو مع العقل^(٤).

وسوف نتناول في هذا الصدد المفارقة في الأخلاق الرواقية في الموضوعات الآتية: الحياة وفق الطبيعة، والفضيلة، والانفعالات، وأوصاف الحكيم الرواقي، والحرية والقدر.

١- مفارقة الحياة وفق الطبيعة:

قد بنت الرواقية آراءها الأخلاقية على مبدأ العيش وفق الطبيعة، ويشتمل هذا المبدأ على معنيين: أولاً: المعنى الواسع، وهو أن يعمل الناس وفق قوانين الطبيعة التي تحكم العالم، ثانياً- المعنى الضيق، وهو أن يعملوا وفق أهم شيء في طبيعتهم ألا وهو العقل،

(١) الرواقية Stoicism: تعد إحدى الفلسفات الثلاث الرئيسة التي تشكل الفلسفة الهلنستية، وكان مؤسسها زينون الإكثيومي Zeno of Citium (٣٣٤ ق.م - ٢٦٢ ق.م)، وقد خلفه كليانثس Cleanthes (٣٣١ ق.م - ٢٣٢ ق.م) الذي عمل بوصفه رئيساً للمدرسة الرواقية، ثم جاء كريسيبوس Chrysippus (٢٨٠ ق.م - ٢٠٦ ق.م)، وهؤلاء الثلاثة هم الممثلون الرئيسون للرواقية المبكرة، ولكن لم يبق عمل من قبل أي رواق في المرحلة الأولى سليماً، باستثناء "ترنيمة زيوس" لكليانثس، وكانت المرحلة الثانية تمثل الرواقية الوسطى التي تطورت إلى حد كبير في رودس Rhodes عند كل من بنايتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Posidonius، وكلاهما كان له تأثير في اهتمام الرواقية بالرسائل الفلسفية لشيشرون في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، أما المرحلة الثالثة فهي الرواقية الرومانية، وهي تمثل العصر الرواقي المتأخر، ويمثلها على وجه التحديد: سينيكا Seneca، وإيكتيتوس Epictetus، وماركوس أوريليوس.

(CP: Robert Audi: The Cambridge Dictionary of Philosophy, art: Stoicism, Second edition, Cambridge University Press, New York, 1999, PP. 879- 881).

(٢) سينيكا Seneca: (٥ ق.م - ٦٥ م) هو رواق روماني، وفيلسوف وخطيب، وهو من أتباع أفريسيبوس، وكان متأثراً تأثراً عميقاً بكل من بنايتيوس وبوسيدونيوس، وقد اتصفت مؤلفاته بصيغة لاتينية في أفكارها وفي طريقة عرضها، وكانت البلاغة الرومانية أدواته في التعبير. (انظر: جوناثان رى & وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مادة: سينيكا، ترجمة: فؤاد كامل & آخرون، مراجعة وإشراف: زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، ط١، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ص ١٩٠-١٩١).

(٣) عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) جورج سارتون: تاريخ العلم، "العلم القديم في العصر الذهبي لليونان"، ج ٣، ترجمة: لفيف من العلماء، إشراف: إبراهيم مذكور & آخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٣٨٧.

فيسير الإنسان تبعاً لما ما يرشد إليه العقل خاضعاً لقوانين العالم؛ ومن ثم تكون حياته حياة أخلاقية، فالفضيلة هي السير وفق العقل^(١).

ولذلك ترى الرواقية أن هدف البشر هو العيش وفق الطبيعة، وأنهم عبروا عن هذا الهدف بتعبيرات أخرى وكلها صالحة على حد سواء، وهي: "الحياة وفق العقل"، "الحياة وفق الفضيلة"، و"السعادة"، أو "تحقيق السعادة"؛ وكل هذه التعبيرات لها الدلالة نفسها؛ مما يعطي انطباعاً بأن المبادئ الأساسية للأخلاق الرواقية عبارة عن حلقة مفرغة؛ إذ يجب على المرء أن يعيش وفق الطبيعة؛ لأن هذا يتفق مع العقل، كذلك ينبغي له أن يعيش المرء عقلاً؛ لأن هذا يتوافق مع الطبيعة^(٢).

ولقد حدد إبيكتيتوس^(٣) الغاية الأساسية للموجودات، وهي الحياة وفق الطبيعة؛ ومن ثم تمثل الطبيعة معياراً للتفكير والسلوك الإنساني، ويمكن القول إن مفهوم الطبيعة كان بمنزلة المبدأ الأخلاقي، وقد كان لدى إبيكتيتوس - مثل غيره من الرواقيين - تصور غائي ومعيارى للطبيعة، وهذا هو السبب في قوله: إن كل شيء شرير يتعارض مع الطبيعة، كما أنه اتفق في ذلك مع أفلاطون وأرسطو؛ ونتيجة لذلك وضع إبيكتيتوس قانون الحياة وفق ما تتطلبه الطبيعة؛ لأننا إذا أردنا في كل أمر وفي كل ظرف أن نلاحظ ما يتوافق مع الطبيعة، فمن الضروري أن نجعل هدفنا في كل شيء هو تلبية كل ما تتطلبه الطبيعة، وتجنب كل ما يتعارض مع الطبيعة^(٤).

ولكننا نجد أنه على الرغم من أن عبارة "الوفاق مع الطبيعة" قد تصيب المفكر الحديث بالغموض؛ لكونها عبارة غامضة وتبدو من دون معنى، فإنها عبارة أساسية لفهم الأخلاق الرواقية؛ إذ إنها ذات معنى ثري، ولذلك نجد أن إبيكتيتوس قد ميز بين معاني عدة لكلمة الطبيعة: ١- النوع أو الماهية (مثل: طبيعة الفقر، أو المنفى، أو الموت)، ٢- الكون الذي ينظر إليه على أنه كل منظم، ذلك الذي يتحدد عن طريق القوانين، ويطابق إبيكتيتوس

(١) أحمد أمين & زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ٢٩٠.

(٢) A. A. Long: Stoic Studies, University of California Press, London & England, 2001, P. 134.

(٣) إبيكتيتوس Epictetus (٥٥-١٣٥م): فيلسوف رواقى، ذو نزعة أخلاقية، وكان في الأصل عبداً، وقد أتت لنا آراؤه عن طريق تلميذه Arrian، في صورة عملين: "المختصر" The Manual وهو ملخص لأرائه، و"الخطابات" Discourses؛ وكان سجلاً لمعظم محاضراته، ويتألف من ثمانية كتب، أربعة منها ظلت باقية، وقد أثرت كتاباته فيمن جاء بعده، ولا سيما كتابه "المختصر" الذي أثر في ماركوس أوريليوس.

(CP: Thomas Mautner: A Dictionary of Philosophy, art: Epictetus, OP. Cit, P. 129).

(4) William O. Stephens: Stoic Ethics "Epictetus and Happiness and Freedom", Continuum International Publishing Group, London & New York, 2007, P.123.

الطبيعة بهذا المعنى مع الإله "زيوس" (Zeus⁽¹⁾)، ٣- قانون الطبيعة في الكائنات الحية، الذي يتمثل في تكوين الكائن الحي (على سبيل المثال: طبيعة الكلب، أو الثعبان، أو الشجرة)، ٤- الطبيعة الإنسانية، وهي ذات طبيعة مشتركة بين جميع أفراد الإنسان⁽²⁾.

ولذلك تعطى الأخلاق الرواقية أهمية كبيرة للطبيعة، وعلى الرغم من أن أرسطو تحدث عن طبيعة الأشياء الجزئية والأنواع، فإننا نجد أن الرواقيين يعود إليهم الفضل في تقديم مفهوم "الطبيعة" بوصفه نظامًا كونيًا واحدًا يشتمل على أنواع مختلفة من الأشياء⁽³⁾.

ويمائل مبدأ العيش مع الطبيعة عند الرواقيين العيش وفق الفضيلة، وكان المبدأ الأخلاقيّ عندهم هو أن الفضيلة وحدها ضرورية للسعادة؛ ولذلك لم تكن الفضيلة الغاية الأسمى فقط، بل إنها أيضًا الخير الحقيقي⁽⁴⁾.

فكانت السعادة تتحقق عند الرواقية، وفق مبدأ "العيش وفق الطبيعة"، أي العيش وفق العقل أو الفضيلة، وقد استبعدوا في ذلك موضوع اللذة والترف والثروة والنجاح؛ لأنهم رأوا أن هذه الأمور لا تتوافق مع الإرادة الإلهية، فيتحقق ذلك التوافق والانسجام مع الإرادة الإلهية، عن طريق الفضيلة وحدها، من دون أي شيء آخر؛ ومن ثم فإن الفضيلة وحدها هي السبيل لتحقيق السعادة⁽⁵⁾.

ونجد أن العالم عند الرواقية يتكون من عنصرين: العنصر المنفعل وهو المادة، والعنصر الفاعل وهو العقل الذي يحرك المادة من داخلها، ويضفي عليها صورتها، ولكنه لا ينفصل عنها⁽⁶⁾، مما يدل على نزعتهم المادية، والتي تتضح في قولهم: إن النفس شيء ماديّ، فهي في نظرهم ذات طبيعة جسمانية وليست روحانية، كما أن الإله نفسه شيء ماديّ في نظرهم، بوصفه قوة سارية في كل شيء، إلا أنها قوة لا يمكن أن تنفصل عن جميع الأشياء، وكذلك العقل شيء ماديّ⁽⁷⁾.

(١) زيوس Zeus: إله السماء، وكبير الآلهة في الأساطير اليونانية، وابن "كرونوس" و "ريا"، وقد كان له أدوار كثيرة في الأساطير اليونانية، بالإضافة إلى كونه إله للسماء، كان إلهًا للعواصف والأمطار، وسيد البرق، وإلهًا للمعارك، ووالدًا للإله أريس والآلهة أثينا، وكان تمثال زيوس من الأعمال البارزة التي صنعها فيدياس، فضلًا عن أن زيوس كان يُعبد بوصفه راعيًا للزراعة، وتقدم له القرابين من الثمار والفاكهة. (انظر: إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثالث، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت)، ص ص ٤٩٣، ٤٩٧).

(2) William O. Stephens: Stoic Ethics "Epictetus and Happiness and Freedom", OP. Cit, PP. 123-124.

(3) Anthony Kenny: Ancient Philosophy, Vol.1, Clarendon Press, Oxford, New York, 2004, P. 281.

(4) I Bid, P. 282.

(٥) وليم وود ثورب تارن: الحضارة الهلنستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكي علي، تقديم: مصطفى النشار، المركز القومي للترجمة، ط١، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٣٥٥.

(٦) أندريه كريسون: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ترجمة: الإمام عبد الحليم محمود & الأستاذ أبو بكر ذكرى، مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١١٣.

(٧) جورج سارتون: تاريخ العلم، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٨٧-٣٨٨.

ويتضح لنا مما سبق، أن مبدأ الرواقية: "العيش وفق الطبيعة"، الذي يعني العيش وفق العقل، ينطوي على مفارقة؛ ذلك لأنه يتعارض مع نزعتهم المادية، التي تعد كل شيء في العالم ذا طبيعة مادية بما في ذلك العقل، وهذا يتعارض مع طبيعة العقل، فالعقل ذو طبيعة روحية وليست مادية كما زعمت الرواقية.

وهكذا بعد أن أوضحنا المبدأ الأخلاقي عند الرواقية الذي يتمثل في العيش وفق الطبيعة الذي كان يمثل الغاية أو الهدف الأساسي عند الرواقيين؛ ذلك لوضعها قانون الحياة وفق ما تتطلبه الطبيعة، وتجنب كل ما يتعارض مع الطبيعة؛ كما ذكر إبيكتيوس. وأصبح مبدأ العيش وفق الطبيعة يماثل مبدأ العيش وفق الفضيلة، ننقل إلي جانب آخر من جوانب مفارقة الأخلاق عند الرواقية ألا وهو الفضيلة.

٢- المفارقة في مفهوم الفضيلة:

تعبّر الفضيلة عن حالة نفسية من الانسجام الذاتي الذي يُطلب من أجل ذاته لا من أجل شيء آخر، وفيها تتحقق السعادة، وقد ذهب الرواقيون إلى أن الفضيلة هي كمال الموجود، سواء أكان عاقلاً أم كان غير عاقل، وقد قسموا الفضائل إلى قسمين: رئيسة، وفرعية، وعدوا الفضائل الأفلاطونية الأربعة: الحكمة، والشجاعة، والعدالة، والعفة، فضائل أصلية، في حين أن الشهامة، وضبط النفس، ووحدة الذهن، وحسن المشورة، فضائل فرعية، وقد عرفوا الحكمة، بأنها عبارة عن معرفة الخير والشر، وما ليس خيراً أو شراً، أو ما يجب أن نختاره أو نجتنبه ولا نأبه له، مما يعد تعريفاً عملياً بحثاً^(١).

كما قسم الرواقيون الرذائل أيضاً، إلى قسمين: أولية، وثانوية، وفيما يتعلق بالأنواع الأولى فإنه يتضمن حماقة، والجبن، والظلم، والتبذير، في حين أن الرذائل الثانوية تشتمل على الفسوق، والغباء، والطيش، بالإضافة إلى أنهم ذهبوا إلى أن الرذائل نابعة من الجهل، أما الفضائل فقوامها المعرفة^(٢).

ويمر الإنسان في حياته الأخلاقية بثلاث مراحل: المرحلة الأولى - هي الانعطاف الفطري، ويميل فيها الإنسان إلى الخير بفطرته، والثانية هي دورة التفكير، وفيها تتأثر الإرادة بمؤثرات اجتماعية خارجية قد تفسد في هذه الحالة الفطرة وتميل نحو الشر، ولكن الإنسان في

(١) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، "من طاليس (٥٨٥ ق.م) إلى أفلوطين (٢٧٠ م) وبرقلس (٤٨٥ م)"، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٩١ م، ص ١٧٦، وأيضاً:

- William O. Stephens: Stoic Ethics "Epictetus and Happiness and Freedom", OP. Cit, P. 108.

(٢) ديوجينيس لايرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج ٢، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ١٨١-١٨٢.

هذه المرحلة يحتاج إلي الاستتارة بنور العقل، أما المرحلة الثالثة- ألا وهي الحكمة، وهذه لا يمتلكها إلا القليل من الأفراد، ويصبح الفرد فيها معصوماً من الوقوع في الرذائل والشرور^(١).

وقد كانت الفضيلة الأساسية عند الرواقية هي الحكمة، والتي تتضمن أربع فضائل رئيسية: الاستبصار، والشجاعة، والتحكم في النفس، والعدل، ولما كانت الحكمة هي أصل كل الفضائل، فإن من يمتلك الحكمة، يمتلك جميع الفضائل، ومن لم يمتلكها، فإنه يفتقر إلى جميع الفضائل؛ ومن ثم تتضح والمفارقة في الأخلاق الرواقية، عن طريق قولهم إن الإنسان إما أن يكون فاضلاً تماماً أو شريراً تماماً؛ ولذلك فإنهم يقسمون العالم إلى فئتين: فئة الحكماء، وفئة الأغبياء، فالحكماء خيرون تماماً، في حين أن الأغبياء أشرار تماماً، ولا شيء بين الاثنين، فلا يوجد توسط بين الفضيلة والرذيلة، وقد ضرب الرواقيون أمثلة لهذا الرجل الحكيم، مثل: سقراط، وديوجين الكلب^(٢)؛ ذلك لأن الحكمة التي تعني (استقامة الإرادة) هي شيء غير منقسم، ولا يقبل التدرج، فهي إما أن توجد أو لا توجد، مثل الخط إما مستقيم أو منحرف ولا وسط بينهما^(٤).

وإذا كانت الحكمة هي أساس جميع الفضائل، فإن الشجاعة هي الحكمة فيما يجب تحمله، والعفة هي الحكمة في اختيار الأشياء، والعدالة هي الحكمة في توزيع الحقوق^(٥)؛ ولذلك يصبح الشخص الحكيم هو الذي يكفي نفسه في كل شيء، ولديه معرفة بحقائق الأشياء، وفيما يتعلق بموضوع الأخلاق، فإن الخير الأسمى هو الحياة الفاضلة؛ إذ إن الفضيلة هي وحدها السعادة، والرذيلة هي وحدها مصدر التعاسة، وقد قال الرواقيون إنه لا يوجد درجات بين الفضيلة والرذيلة، وعلى الرغم من أن لكل منهما مظاهره الخاصة، فلا شيء خير سوى الفضيلة، ولا شيء شر سوى الرذيلة^(٦).

ولذلك تنكر الرواقية التقدم أو التدرج، وهذا بالطبع ينطوي على مفارقة، وذلك ما نجده في تعريفهم الحكمة تعريفاً يجعلها تبدو وكأنها مطلقة، فإما أن يكون الشخص حكيماً أو غير حكيماً، ولا يوجد وسط بينهما^(٧)؛ ومن ثم لا توجد درجات للفضائل أو الرذائل.

-
- (١) محمد غلاب: الفلسفة الإغريقية، ج٢، ط١، القاهرة، ١٩٣٨م، ص١٦٨.
- (٢) ديوجين الكلب^(٢) Diogenes The Cynic (٤١٣-٣٢٧ ق.م): فيلسوف يوناني ومؤسس المدرسة الكلبية، ولد في سينوب بأسيا الصغرى، ودرس في أثينا على يد إنستانس، وتميز بصفات عدة، منها: عمق الفكر، واستقلال الرأي، والحكمة، والثراء، إلا أنه كان يميل للزهد والتشكف. (انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مادة: ديوجين الكلب، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٣، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٤٠٩).
- (٣) وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٨٤.
- (٤) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٢٧٤.
- (٥) المرجع السابق، ص٢٧٣.
- (6) Marcus Aurelius: Meditations, J. M. Dent & Sons LTD, London & New York, 1948, P.XV.
- (٧) ديوجينيس لائيرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج٢، مصدر سابق، ص٢٠٣، (في الهامش).

ووفق ذلك رأى الرواقيون أن الشيء الوحيد الذي له قيمة حقيقية هو ما يتصف به العقل من الكمال، فقد كانت الفضيلة هي فقط خير، وتستحق السعي إليها، والرذيلة فقط هي الشر، وأن غيرها من الأشياء الأخرى لا تكون موضع اهتمامهم؛ إذ تشير الفضيلة إلى الكمال، ولذلك يجب أن تكون معرفتنا واسعة النطاق وغير زائفة^(١).

ولقد حدد الرواقيون مفهوم الخير بالفضيلة؛ إذ إنهم رَوَّأ أن الخير الحقيقي هو الفضيلة، تلك الفضيلة التي تكون مستقلة تمامًا عن أهداف الإنسان، فكانوا يعتقدون أن معظم الأشياء - إن لم يكن كل الأشياء التي يسعى البشر من أجلها بشكل طبيعي - ليست خيرة بالمعنى الدقيق للكلمة، وبدلاً من ذلك، فقد عدُّوا هذه الأشياء التي يسعى إليها الإنسان هي مجرد تفضيل، في حين أن نقيضها يمثل "تتافراً"، وقد بدأ هذا الرأي غريباً إلى حد ما، ولم تتمكن الدراسات الحديثة من فهمه^(٢).

ولذلك ترى الرواقية أنه من بين الأشياء الموجودة بعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها ليس هذا ولا ذاك، وأن الأشياء الخيرة هي الفضائل: الحكمة والعدالة، والثبات، ... وما إلى ذلك، والأشياء الشريرة وهي نقيض ذلك مثل: الحمق والظلم ... وما إلى ذلك، والأشياء التي ليست هذا ولا ذاك، فهي تلك الأشياء التي لا تنفع ولا تضر، على سبيل المثال: الحياة، والصحة، والمتعة، والجمال، والقوة، والثروة، والشهرة، ونفائضها من الموت، والمرض، والألم، والقبح، والضعف، والفقر، وسوء السمعة^(٣).

ولكن ينطوي رأي الرواقية بوجود أشياء محايدة، أي ليست خيراً أو شراً، هو ينطوي على مفارقة؛ والسبب في ذلك هو أننا نجد أن المرض على سبيل المثال وفقاً لرأيهم ليس شراً، وإن كان الأمر كذلك، فلماذا حينئذ نتنهي على رجل الطب الذي يخاطر بحياته في علاج وباء الطاعون، إلا لأننا نرى أن المرض شر، ونأمل أن يقل وقوعه، أما إذا لم يكن المرض شراً، فكان من الأفضل للطبيب أن يخلد إلى الراحة في داره^(٤).

ونجد أن الرواقية كانت على صواب في قولها إن الفضيلة من حيث هي خير داخليّ أهم من كل ما عداها؛ إذ إنه من الممكن أن نعوض بقدر معين ما يضيع من الممتلكات المادية، ولكن إذا فقد المرء احترامه لذاته، فإنه ينحط إلي ما دون مستوى البشر^(٥).

(1) Tad Brennan: "The Old Stoic Theory of Emotions", in: The Emotions in Hellenistic Philosophy", edited by: Juha Sihvola & Troels Engberg-Pedersen, Springer, Kluwer Academic Publishers, 1998, P.26.

(2) Nicholas P. White: "The Basis of Stoic Ethics", in: Harvard Studies in Classical Philology, Published by: Department of the Classics, Harvard University, Jstor, vol. 83, 1979, P.149.

(3) Anthony Kenny: Ancient Philosophy, Vol. 1, OP. Cit., PP. 282-283.

(٤) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، "الفلسفة القديمة"، ج ١، ترجمة: زكي نجيب محمود، مراجعة: أحمد أمين، أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٥) برتراند رسل: حكمة الغرب، ج ١، ترجمة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد: ٦٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٧٠.

ولذلك تضمن قول الرواقيين إن الفضيلة هي الخير الأوحد، تناقضًا؛ ذلك لأن هذا يقتضي أن الإله يقصر الخير على إحداث الفضيلة، ومع ذلك نجد أن قوانين الطبيعة قد أخرجت الكثير من مرتكبي الخطيئة، فضلًا عن وجود القسوة والظلم، وإذا كان الكون خاضعًا لقانون الحتمية^(١)، فإن قوانين الطبيعة هي التي تقرر لي أن أكون فاضلاً أو غير فاضل، وإذا كنت شريراً، فالطبيعة هي التي ألزمتني أن أكون شريراً، مما ينفي وجود الحرية التي من المفترض أن تهبها الفضيلة للإنسان^(٢).

ولقد أوضح سينيكا العلاقة بين القول إن الفضيلة هي الخير الأسمى وبين أشياء أخرى مثل الصحة، ولكن إذا كانت الصحة، والراحة، والتحرر من الألم أشياء لا تعوق الفضيلة، هل يتبعهم سينيكا في هذه الحالة؟ يجيب سينيكا عن ذلك بأنه لا يتبعهم، لأنها أشياء ذات قيمة في ذاتها، ولكن نظراً لأنها أشياء تتوافق مع الطبيعة، أي أنه يأخذها وفقاً لحكمته الفاضلة، فما فيها من خير، هو فقط يتم اختياره بصورة مناسبة، وقد أوضح سينيكا ذلك بمثال: حينما ارتدي نوعاً معيناً من الملابس، أو أسير في طريق ما، فليس الطعام ولا المشي، ولا الملابس ذات قيمة في حد ذاتها، ولكن النية التي تقتضي الحفاظ على المعيار في كل شيء يتوافق مع العقل، ولذلك فإن الثياب الأنيقة ليس خيرة في حد ذاتها، بل يكون الخير في اختيار تلك الملابس الأنيقة؛ لأن الخير ليس في الشيء نفسه، بل في صفة الاختيار^(٣).

وبناء على ذلك، يكمن الدافع وراء تطوير الفضائل الأخلاقية لدى الرواقية في تحقيق (الصدق والاستقامة)، وهذه الفضائل هي كالتالي: العدالة، والشجاعة، وضبط النفس (الاعتدال)، والحكمة (التعقل)، ووفق ذلك يقال إنه حتى عند الأطفال ترجع بعض الدوافع إلى أفعال فاضلة، تكون أشبه ببذور الفضائل، والتي تتطور لاحقاً مع اكتساب معرفة أكبر، والخلاصة هي أن هذه الدوافع هي بمثابة ملكات لدينا منذ الولادة، والتي يكون تطويرها جزءاً من عملية استكمال الشخص كله^(٤).

وقد ربطت الرواقية الصداقة بالفضيلة؛ إذ إن الفضيلة تخلق الصداقة، وتعمل على رعايتها والحفاظ عليها، ولا يمكن أن توجد صداقة على وجه الإطلاق من دون فضيلة^(٥)، وهكذا يتضح لنا أن الرواقيين قصروا مفهوم الصداقة على الحكماء فقط^(٦)، بقولهم إنه لا

(١) الحتمية Determinism: ظهر هذا المصطلح في الفلسفة الألمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ويشير إلى جملة الشروط التي تعين حدوث ظاهرة من الظواهر، أو هي جملة العلل والمعلولات المترابطة ترابطاً ضرورياً. (انظر: مراد وهبه: المعجم الفلسفي، مادة: الحتمية، مرجع سابق، ص ٢٦٥).

(٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، "الفلسفة القديمة"، ج ١، ص ٣٩٥.

(٣) A. A. Long: Stoic Studies, OP. Cit, PP. 28, 29.

(٤) Nicholas P. White: "The Basis of Stoic Ethics", OP. Cit, P.151.

(٥) أحمد عبد الرحيم أبو زيد: عن الصداقة لشيشرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٤٨.

(٦) وذلك ما سوف نوضحه لاحقاً عند حديثنا عن أوصاف الحكيم الرواقي.

توجد صداقة من دون فضيلة، وهذا بدوره ينطوي على مفارقة، فضلاً عن أن حديثهم عن الصداقة يتناقض مع قولهم بأهمية تجرد الحكيم من الانفعالات والمشاعر بما تنطوي عليه من الحب، فكيف تتكون صداقة من دون مشاعر وحب؟

ولكننا نجد اختلاف ماركوس أوريليوس^(١) مع المبدأ الأخلاقي الرواقِيّ القائل بتساوي الآثام جميعاً في الدرجة، مما يدل على النظرة المعتدلة إلى حد ما لديه، فلقد تخلى عن بعض عقائد الرواقية التي لا تتوافق مع نظرتة الإنسانية المعتدلة، ولم يقبل مثلاً أن توضع جميع الذنوب في مرتبة واحدة، بل كان يرى أن ارتكاب الخطيئة ابتغاء للذة أشد من ارتكابها لتجنب ألم أو لدفع مضرة^(٢).

وهكذا يتضح لنا أن الرواقية اقتصرت في مفهوم السعادة على الفضيلة فقط، وهذا ينطوي على مفارقة؛ وذلك لأننا في الواقع نجد أن هناك وسائل أخرى لتحقيق السعادة، ومنها على سبيل المثال: الصحة، والثروة، والشهرة، وغير ذلك من الأمور، كما انطوى قولهم بتساوي جميع الفضائل والردائل على مفارقة؛ إذ لا يوجد توسط بين الفضيلة أو الرذيلة، ومن المفارقة أيضاً قولهم إن الحكمة هي أساس جميع الفضائل، فمن حازها، فقد حاز على كل شيء، ومن فقدها، فقد فقد كل شيء، فالشخص إما أن يكون حكيماً أو أن يكون أحمق.

٣- المفارقة في مفهوم الانفعالات:

لقد أصبحت الأخلاق الرواقية من الناحية العملية، حرباً ضد العواطف والانفعالات، ومحاولة لبلوغ حالة الحرية والسيادة الأخلاقية؛ ولذلك فلا نجد مناقشات حول تنظيمها والاعتدال فيها بقدر ما نجد من أحاديث حول التخلص منها، والوصول إلى حالة الأباتيا^(٣) Apathy التي كانت غايتهم الأساسية^(٤)؛ ذلك لأن الحكيم عندهم لا ينساق للعاطفة apathe؛ لأنه لا يخضع لتقلباتها، فهو لا يفرح ولا يحزن؛ لأن كلاً من الحزن والفرح حالتان غير عقليتين، فهو يتمسك بالفضيلة دوماً مهما تغيرت الأحوال، وهو وفق ذلك يشبه الإله^(٥).

(١) ماركوس أوريليوس، أنطونيوس Marcus Aurellus, Antoninos (١٢١-١٨٠م): إمبراطور، وفيلسوف روماني، من أتباع المذهب الرواقِيّ، ومن أبرز مؤلفاته: "التأملات"، وقد اهتم ماركوس اهتماماً واضحاً بشخصيته الأخلاقية في تصرفاتها تجاه الآخرين، وبذلك فكان مثلاً أخلاقياً. (انظر: جوناثان رى & وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مادة: ماركوس أوريليوس مرجع سابق، ص ٢٩٦).

(٢) ماركوس أوريليوس: التأملات، ترجمة: عادل مصطفي، مراجعة وتقديم: أحمد عثمان، مؤسسة هنداوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م، ص ٤٠، (في الهامش).

(٣) أباتيا Apathy: هي حالة من الانفصال أو السكون التي يبقى فيها المرء غير متأثر بتقلبات أو تغييرات الحياة، التي يعدها الرواقيون الشرط الأساسي لديهم؛ إذ نجد في رأيهم أن العواطف أو الانفعالات لاعقلانية؛ ومن ثم تتعارض مع الطبيعة.

(٤) فرديريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، (اليونان وروما)، ج ١، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، للثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٥٣٢-٥٣٣.

(٥) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، "من طاليس (٥٨٥ ق.م) إلى أفلوطين (٢٧٠م) وبرقلس (٤٨٥م)"، مرجع سابق، ص ١٧٦.

وقد دعا إيكيتيوس إلي ضرورة كبت العواطف والانفعالات، أي: حبس الدموع والصمود في حالة فقدان الزوجة، أو الابن، أو الصديق، وإن كان إيكيتيوس قد دعا أحياناً إلي مشاركة آلام الآخرين، فإن ذلك يقتصر فقط على الأقوال والمظاهر، ولا تصدر من أعماق النفوس؛ لأنه لا يجب أن يعكر صفاء العقل وهدوء النفس أي شيء؛ ومن ثمّ يبتعد الحكيم عن الانفعالات، وهذا يتناقض مع تصريحه بأهمية وجود العاطفة، في تكوين العلاقات بين الناس في المجتمع، إذ رأى أننا لا ينبغي لنا أن نكون كالتماثيل، مجردين من الإحساس^(١).

كما كان الحكيم الرواقي في رأي إيكيتيوس، يحتفظ بخلو البال وصفاء النفس في جميع الأحوال، حتى في محنته الخاصة، وهذا ما أكده بقوله: "إِذَا مَا رَأَيْتَ شَخْصًا يَبْكِي مَتَحَسَّرًا، لِفِرَاقِ وُلْدٍ أَوْ لَوَفَاتِهِ، أَوْ لِفَقْدَانِ مَمْتَلِكَاتِهِ، فَاحْذَرِ أَنْ يَأْخُذَكَ الظَّاهِرُ بَعِيدًا فَتَنْظُنَ أَنَّ الْأَضْرَارَ الْخَارِجِيَّةَ هِيَ مَا يَبْكِيهِ، ... لِذَلِكَ لَا تَدْخُرِ وَسْعًا فِي أَنْ تَوَاسِيَهُ بِالْكَلِمَاتِ ..."^(٢).

وقد أشار أيضًا ماركوس أوريليوس بقوله: "... فَإِنَّ الْعَقْلَ الْخَالِيَّ مِنَ الْانْفِعَالَاتِ هُوَ قَلْعَةٌ؛ لَيْسَ ثَمَّةَ مَلَأَ لِلنَّاسِ أَقْوَى مِنْهُ، وَمَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ فَهُوَ فِي حِصْنِ حَصِينٍ؛ فَمَا أَجْهَلُهُ مِنْ لَا يَرَى هَذِهِ الْقَلْعَةَ! وَمَا أَتَعَسَهُ مِنْ لَا يَلُودُ بِهَذَا الْحِصْنِ!..."^(٣)، مما يؤكد ضرورة من جميع الانفعالات والأهواء، وهذا بالطبع ينطوي على مفارقة، لاستحالة حدوث ذلك في الواقع، وهذا يؤكد مدى الغلو الذي وصل إليه الرواقيون.

ولم يهاجم الرواقيون العواطف السيئة وحدها، بل هاجموا العواطف جميعها، فالحكيم ليس من شأنه أن يعطف على أحد، فإذا مات أطفاله، فكر قائلًا إن هذه الحادثة لا تعوق قيام فضيلته هو، ولذا فهو لا يعاني ألمًا عميقًا؛ مما يدل على برود العاطفة^(٤)!

وعلى الرغم من أن الرواقية قد أوضحت أن الحكيم هو الشخص المتحرر من الانفعالات؛ لأنها مصدر للضعف، فإنهم ذهبوا من ناحية أخرى إلى أن الخلو التام من الانفعالات، صفة تنطبق على الإنسان المرذول؛ لأنها تعني في هذه الحالة أنه شخص قاس عديم الرحمة^(٥).

(١) عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، ص ٢٠٣.
(٢) إيكيتيوس: المختصر، دراسة وترجمة: عادل مصطفى، مؤسسة هندواي سيّ أيّ سيّ، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م، ص ٢٩.
(٣) ماركوس أوريليوس: التأملات، مصدر سابق، ١٢٠.
(٤) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، "الفلسفة القديمة"، ج ١، مصدر سابق، ص ٣٩٦.
(٥) ديوجينيس لائرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج ٢، مصدر سابق، ص ١٩٦.

وهكذا يتضح لنا أن نظرية الرواقية في الانفعالات تتطوي على مفارقة؛ إذ إنها تتعارض مع قولهم بالصدقة، وتكوين علاقات بين الناس في المجتمع بما تتطوي عليه من الحب؛ ومن ثم كانت الرواقية بمنزلة حرب ضد الانفعالات والعواطف، فقد دعت إلى أهمية تجرد الحكيم من أي عاطفة أو انفعال، وهذا بالطبع يتعارض مع الواقع.

٤- المفارقة في أوصاف الحكيم الرواقِي:

كانت شخصية الحكيم التي جاء وصفها في محاورات أفلاطون: الجمهورية، وجورجياس، وما يتصف به الحكيم من زهد في ماديات الحياة الزائلة، واكتفائ بفضيلته، وسموه عما يسعى إليه سائر الناس، واتزانه واعتداله، وهي كلها كانت بمنزلة ارهاصات أولى، قد استقت منها الرواقية مثلها الأعلى لحياة الحكمة التي يجب أن يكون عليها الفيلسوف، ومع ذلك نجد اختلاف بين كل منهم، إذ يتمثل هدف أفلاطون في إعداد الحكيم لحياة مثالية يحيا فيها مع الآلهة، في حين أن الرواقيين سعوا إلى الحياة في مجتمع بشريّ يضم سائر الناس على هذه الأرض^(١).

وتعد شخصية الحكيم لدى الرواقية بمنزلة المثل الأعلى للإنسانية؛ إذ يرون أنه لا يهتم بالأشياء الخارجية جميعها، أو بالثراء، أو الصحة، أو السلطة، بل يقتصر فعله وتفكيره على الفضيلة، بما يتوافق مع مبدئه الحاكم، وكانوا يبالغون في تكريم الحكيم، وذلك ما يظهر لنا عن طريق أوصافهم له، وما تتطوي عليه من مفارقات^(٢)، ونجد في التصور المثاليّ لدى الرواقية للحكيم قولهم: إنه يمتلك جميع الفضائل، كما أنه يخلو تمامًا من أي انفعال، ويمتلك كل قيمة^(٣).

ولم يكن لدى الحكيم الرواقِي أي خطأ على وجه الإطلاق^(٤)؛ إذ إنه يمتلك المعرفة التي تجعله محصنًا من جميع أنواع الأخطاء^(٥)، ومن الواضح أنه يُكوّن كل معتقداته عن طريق حصوله على الانطباعات المعرفية^(٦)، كما أنه لم يضل في فهمه حتى في منامه، أو حتى تحت تأثير النبيذ، أو في حال الهذيان، إلا أن ذلك كان محور اختلاف؛ إذ لا يوجد إتفاق كامل، فبعضهم يرى أنه من الممكن أن يخطئ الفيلسوف في حكمه، كما رأى

(١) أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، دار ومطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٢٧١.
(٢) أ. ه. أرمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة، ترجمة: سعيد الغانمي، دار كلمة، أبو ظبي، المركز الثقافي العربي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٦٩.

(3) Anthony Kenny: Ancient Philosophy, Vol. 1, OP. Cit, P. 285- 286.

(4) Epictetus: Moral Discourses "Enchiridion and Fragments", Translated and Introduced by: Elizabeth Carter, J. M. Dent & Sons LTD, London & New York, 1957. P. X.

(٥) اعترض ماركوس أوريلوس على ما زعمه الرواقيون من قولهم: إن الحكيم لديه المعرفة اليقينية؛ ذلك لأن هذا الشخص غير موجود، فاليقين شيء لا يُدرك ولا يُنال، بل إن الرواقيين أنفسهم يحكمون بأن بلوغ ذلك غير ميسور، فإذا كان كل تصديق عقليّ عرضة للتغير والخطأ، فأين الرجل المعصوم حينئذ؟ (انظر: عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، ص ٢١٠).

(6) Havard Lokke: Knowledge and Virtue in Early Stoicism, Springer Dordrecht Heidelberg, New York & London, 2015. P. 79.

الرواقيون أن جميع الفضائل وجميع الرذائل متساوية، وهذا بالطبع ينطوي على مفارقة^(١)؛ ومن ثم فلا يوجد حد وسط بين الخير والشر، فإما أن يكون المرء حكيمًا، أي يسير في حياته وفقًا للعقل، أو يكون شريرًا وأحمق، كما لا يمثل السير في طريق الأخلاق أو النقص إلى الكمال من فرق^(٢).

ويتشابه الرواقيون في قولهم "إن الإنسان الحكيم يساير حياته وفق العقل" مع أفلاطون وأرسطو في تأكيدهم من قبل أهمية العقل، وإنما يكمن الفرق بينهم في تفسير الرواقين لهذا المبدأ؛ إذ يعدون الشهوات شرًا محضًا يجب إبادته، وصوروا الحياة بمنزلة صراع بين العقل والشهوات، يجب أن ينتصر فيه العقل على الشهوات ويمحوها؛ ومن ثم فلا يوجد توازن بين قوى الإنسان، وعلى الرغم من أن أرسطو يتفق مع الرواقية في تأكيدهم أن العقل أهم ما في الإنسان، فإنه يختلف عنهم؛ إذ إنه رأى أن الشهوات جزء رئيس في الإنسان؛ ومن ثم فلا يجب محاربتها، بل ينبغي لنا ضبطها بواسطة العقل^(٣).

ومن بين الأمور التي تدل على المفارقة عند الرواقية القول إن الشخص الحكيم هو فقط من يتصف بالجمال، كما أن الحكيم هو فقط الشخص الحر، وهو فقط من يطلق عليه صفة المواطن، في حين أن الحمقى لديهم الصفات المقابلة^(٤).

وسوف نعرض هنا لآراء فلاسفة الرواقية في تصورهم أوصاف الحكيم، وما تنتطوي عليها من مفارقات:

نجد أن زينون^(٥) الذي أسس الدولة المثالية عنده على الحب، لم يجعل لحب الآخرين أي مكان في تكوين الرجل الحكيم؛ إذ نجد من أوصاف الحكيم أنه عديم الشعور وعديم الشفقة، فهو قد يفعل الخير ولكن من دون أي إحساس تجاه الآخرين؛ ذلك لأن هدوءه لا يجب أن يعكسه شيء^(٦).

(1) Epictetus: Moral Discourses "Enchiridion and Fragments", OP. Cit, PP. X, 347.

(٢) أ. ه. أرمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة، مصدر سابق، ص ١٦٩.

(٣) أحمد أمين & زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(4) Cicero: On Moral Ends, edited by: Julia Annas, Translated by: Raphael Woolf, Cambridge University Press, New York, 2004. P. 114.

(٥) زينون الإكتيومّي Zenon of Citlum (حوالي ٣٣٣-٢٦٢ ق.م): فيلسوف يوناني، ومؤسس المدرسة الرواقية (تلك المدرسة التي استمدت اسمها من الرواق (البهو ذي الأعمدة)، وولد زينون في إكتيوم من أعمال قبرص، ونشأت فلسفته عن المبدأ الأساسي في المذهب الكلبي، وهو الاكتفاء الذاتي بالفضيلة، فضلًا عن تأثير الأخلاق المشائية في تفكير زينون. انظر: جوناتان رى & وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مادة: زينون الإكتيومّي، مرجع سابق، ص ١٧٥).

(٦) وليم وود ثورب تارن: الحضارة الهلنستية، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

ولقد رأى كريسيبوس^(١) أن الرجل الخير (الحكيم)، ينال السعادة الدائمة، أما الشرير فيظل في الشقاء الدائم، كما أن سعادة الحكيم لا تختلف في شيء قط عن سعادة الإله^(٢).

فكان الحكيم عند الرواقية بمنزلة الإله (الإنسان الكامل)؛ وذلك عن طريق عرضهم لأوصافه بأنه الكائن الوحيد الذي ينفرد بالقدرة، والغنى الكامل، والحرية المطلقة، والسعادة الكاملة^(٣).

وقد اعتمد التفسير الفلسفي لأسطورة هرقل^(٤) وتأليهه على مبدأ إيثار الفضيلة على الرغم مما يحيط بها من مشاق، وتجنب طريق الرذيلة بما فيه من المذات؛ ولذلك قدم سينيكا هرقل في مسرحيته التي جاءت تحت عنوان: "هرقل فوق جبل أويتا"، حكيمًا رواقياً كاملاً، وهو الذي تربع على قمة الحكمة الرواقية بلا منازع، فقد صوره سينيكا بوصفه بطلاً قاهرًا للموت، وقربناً للشمس، بل جعله في منزلة العقل (logos أو ratio)، الكامن في هذا الوجود، فمن المعروف أن الرواقيين قد جعلوا "الحكيم الكامل" عندهم في منزلة الإله، واستندوا في اعتقادهم هذا إلى العناصر الثلاث نفسها التي نجدتها في مسرحية: "هرقل فوق جبل أويتا"، ألا وهي الانتصار على الموت، والتمتع بطبيعة شمسية، والامتزاج أو الاندماج مع "العقل"؛ حتى يصبح معه شيئاً واحداً^(٥).

إذ رأى سينيكا أن الحكيم الرواقي، إنسان لا يخاف الموت، بل يحتقره؛ ذلك لأنه يحتقر الحياة نفسها، فهو يفضل الموت ويسرع إليه، حينما يشعر أن حريته وكرامته وحكمته في خطر، وهنا يتفق مع اعتقاد الرواقيين في أن من يموت هذه الميتة، يكون مصيره في نهاية المطاف أن يصبح إلهاً، ولهذا فإن حرق هرقل فوق جبل أويتا عند سينيكا، قد جاء بمنزلة الانتصار على الموت^(٦).

وعلى الرغم من أن الشخص الحكيم لا يشعر بالخوف مطلقاً، فإنه يكون حذراً، فالحذر نقيض الخوف، وهو نوع من التحاشي العقلاني، كما أن الفرح في رأيهم، نقيض اللذة، فهو عبارة

(١) كريسيبوس Chrysippus (٢٨٠-٢٠٨ ق.م): أحد مؤسسي المدرسة الرواقية، الذي جاء بعد كل من زينون الإكيتومي، وكليانثس، ولم يتبق لنا من كتاباته الكثيرة سوى القليل، وقد حظى بشهرة وأضحة في مجال المنطق، واستمر في تطوير مبادئ المنطق التي أخذها من الميغاريين، وكان يشبه غيره من الرواقيين في أنه أشاد بالفضيلة التي تتمثل في الحكمة العقلانية، بوصفها شرطاً ضرورياً وأساسياً للسعادة.

(٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، "الفلسفة القديمة"، ج ١، مصدر سابق، ص ٣٩٩. (CP: Thomas Mautner: A Dictionary of Philosophy, art: Chrysippus, OP. Cit, P. 71).

(٣) أندريه كريسون: المشكلة الأخلاقية والفلسفة، مرجع سابق، ص ص ١٢٥-١٢٦.

(٤) هرقل Heracles: هو ابن كبير الآلهة زيوس، وواحد من أعظم شخصيات الأساطير اليونانية بل أكثرهم شهرة، وكان هرقل ذا قامة لا مثيل لها في طولها، وقوة بدنية هائلة، يأكل بشره، عرف في السادسة عشرة من عمره بأعماله الخارقة الاتني عشر المسماة بـ "أعمال هرقل"، وأبرزها "قتل أسد نيميا" Emean Lion. (انظر: إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثاني، مادة: هرقل، مرجع سابق، ص ص ١٢٧، ١٢٩).

(٥) سينيكا: هرقل فوق جبل أويتا، ترجمة: أحمد عثمان، مراجعة: د. عبد اللطيف أحمد علي، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨١م، ص ٩٩-١٠٠.

(٦) المصدر السابق، ص ١٠٠.

عن ابتهاج عقلائيّ، كما أن الإرادة نقيض الرغبة، وهي عبارة عن اشتها عقلائيّ؛ ومن ثمّ فإنهم قالوا بوجود ثلاث حالات من المتعة الانفعالية: الفرح، والحذر، والإرادة^(١).

وقد رأى سينيكا أن الشخص الحكيم ينال السعادة؛ لأنه يُخضع كل الأشياء لإرادته، كما أنه يخضع نفسه للعقل، ويحكم أفعاله وفقاً للتشاور وليس وفقاً للعاطفة، ولم تُثره الثروة الباهظة، ولا يخاف الحرب، في حين أن الشخص الأحمق يخاف من أي شيء، ويتفاجأ بالحوادث السيئة كما لو كانت موجهة إليه، ونجد أن الشخص الحكيم لا يفعل شيئاً بالمصادفة، بل إن كل ما يراه ضرورياً يجعله موضع اختياره، كما أن هناك تنوعاً بين الحكماء، ولكن لا يوجد تفاوت بينهم في السعادة، فأحدهم أكثر رقة، والآخر أكثر استعداداً، والثالث أفضل تحدثاً، ولكن سعادتهم جميعاً متساوية، كما هي الحال في الأجسام السماوية، إذ توجد حالة معينة من العظمة^(٢).

ولذلك رأى سينيكا أن متعة الشخص الحكيم تستمر على الدوام من دون انقطاع، في جميع الأوقات، وفي جميع الظروف، وتعد أفكاره مصدراً للسعادة والطمأنينة؛ لأنها لم تأت من الخارج، بل إنها وُلدت فيه، ولا تنفصل عنه، ولذلك فإن الشخص الحكيم لم يخرج عن أفكاره، كما أن الشخص الحكيم لا يشعر بأي نوع من المعاناة^(٣).

وذهب إبيكتيتوس إلى أن ما يجب أن يمارسه الشخص الحكيم ويتصف به هو أن يكون لديه ملكة حاكمة؛ إذ إن الجسد يخضع للنفس، ويستخدم أشياء تتوافق مع الطبيعة؛ كما أن الشخص الحكيم لا يتشاجر أو يتنازع مع أحد، ولا يشعر بالمعاناة، ويقدم لنا إبيكتيتوس حياة سقراط مثالا على ذلك، بالإضافة إلى الفضائل الأخرى^(٤).

ونجد أن أوصاف الحكيم عند الرواقية قريبة الشبه من أوصاف الحكيم عند البوذية^(٥)، البوذية^(٥)، إذ نجده في البوذية متصفاً بأنه الطاهر (المنتصر) والعالم بجميع الأشياء، والذي لا يتأثر بكل ما يجري من أحداث حوله، ولا يعرف همّاً، ولا حاجة به إلى الأشياء، وليس لديه رغبة فيها؛ إذ إنه كالنازح الغريب الذي لا يكثر لمدح ولا ذم، ويقود الآخرين ولا يقوده

(١) ديوجينيس لايرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج ٢، مصدر سابق، ص ١٩٦.

(2) Seneca: "of A Happy Life", in: The Wisdom of the Stoics "Selections from Seneca, Epictetus and Marcus Aurelius", edited and with an Introduction by: Frances and Henry Hazlitt, University Press of America, London, 1984, PP. 16-17.

(3) OP. Cit, P. 13.

(4) Epictetus: Moral Discourses "Enchiridion and Fragments", OP. Cit, P. 139, 224.

(٥) البوذية Buddhism: مجموعة من الآراء الفلسفية والدينية التي نشأت عن تعاليم بوذا، وقد رأت البوذية أن حياة الإنسان في الدنيا ألم وشر، وأنه لا سبيل إلى التخلص من ذلك إلا عن طريق النيرفانا، وذلك لمحاربة الرغبات والشهوات والزهد، ومن أهم أفكارها السببية والتناسخ. (انظر: مراد وهبة: المعجم الفلسفي، مادة: البوذية، مرجع سابق، ص ١٤٧).

أحد، فهو الحكيم الحق، ويستحق المجد والتبجيل؛ ومن ثمَّ فإن تلك الأوصاف تعد بمنزلة صورة شرقية صيغت في صورة يونانية^(١).

ولقد رأى شيشرون^(٢) أن ما ذهبت إليه الفلسفة الرواقية فيما يتعلق بأوصاف الحكيم، يعبر عن أفق خيالي بعيد عن الواقع^(٣)؛ وذلك لأنه على الرغم من أن أوصاف الحكيم تشتمل على مفارقات، إلا أن هذه المفارقات ليس معناها أن الحكيم يملك كل هذه الصفات بالفعل؛ بل تعني أنه وحده لديه استعداد أخلاقي يسمح له بامتلاكها إذا اقتضى الأمر ذلك^(٤).

وكما ذهبت الرواقية إلى أن جميع الناس متساوون، وكانت في ذلك تسير على النهج الذي اتبعه الإسكندر^(٥)^(٦)، إلا أننا نجد أن مبدأ المساواة الذي أقرت به الرواقية ينطوي مفارقة؛ مفارقة؛ وذلك بسبب تمييزها للحكيم (بما نسبت إليه من أوصاف) التي تختلف عن غيره من الناس.

وبعد أن عرضنا أوصاف الحكيم الرواقية وما تنطوي عليه من مفارقات عديدة مثل قولهم: إنه إنسان كامل (أو بمنزلة إله) لا يرتكب أي خطأ أبدًا، ويمتلك جميع الفضائل، وأنه خالٍ من أي انفعال أو عاطفة، وعديم الشعور وعديم الشفقة، وهو وحده ينفرد بالقدرة، والغنى الكامل، والحرية المطلقة، والسعادة الكاملة، وأيضًا هو وحده من يمتلك الجمال، وهذا يتعارض تمامًا مع قولهم بمبدأ المساواة بين الناس جميعًا، وذلك بسبب تمييزهم بين الحكيم وما اشتمل عليه من أوصاف وبين عامة الناس.

٥- المفارقة في مفهوم الحرية وعلاقتها بالقدر:

- (١) عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مرجع سابق، ص ١٦٦.
- (٢) شيشرون، مرقس توليوس (١٠٦ ق.م - ٤٣ ق.م) Cicero, Marcus Tullius: كاتب، وخطيب، وفيلسوف لاتيني، قد أسهم في نشر ثقافة العصور القديمة عبر الأجيال، وعرف بمؤلفاته الفلسفية، وهي كالتالي: محاوراة "الإكاديميات"، و"في الحدود القصوى للخيرات والشُرور"، و"في طبيعة الآلهة"، و"في العرافة"، ومن مصنفاته الأخرى التي نالت نجاحًا واضحًا: "المفارقات"، وأيضًا "كاتون الأكبر أو في الشيخوخة"، و"الليبيوس أو في الصداقة". (انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مادة: شيشرون، مرجع سابق، ص ٤٠٩، ٤١١).
- (٣) أحمد عبد الرحيم أبو زيد: عن الصداقة لشيشرون، مرجع سابق، ص ٤٦.
- (٤) عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، ص ١٦٥، (في الهامش).
- (٥) الإسكندر الأكبر Alexander the Great (٣٥٦-٣٢٣ ق.م): الملك والفتاح المقدوني، الذي كان من أفضل قادة العالم القديم، فقد اشتهر بانتصاراته؛ إذ إنه أقام أكبر إمبراطورية شهدها العالم على الإطلاق، وكان إنجازته الرئيس هو غزو إمبراطورية فارس، ذلك الحدث الذي أعاد تشكيل خريطة العالم القديم، وتوفى عن عمر يناهز ثلاث وثلاثين عامًا.

(CP: David Sacks: Encyclopedia of the Ancient Greek World art: Alexander the Great "Revised Edition", Revised by Lisa R. Brody, Facts on File, Inc., New York, 2005, P. 21).

(٦) بتراند رسل: حكمة الغرب، ج ١، مصدر سابق، ص ١٧٤.

بعد أن أوضحنا آراء الرواقية في الفضيلة، والانفعالات، وأوصاف الحكيم، وكيف تضمنت آراؤهم مفارقات عدة، ننتقل إلى جانب آخر من جوانب المفارقة في الأخلاق الرواقية ألا وهو الحرية وعلاقتها بالقدر.

كان اعتقاد الرواقيين في الضرورة (القدر)، يعني أنه لا بد لكل شيء من علة تربطه، وهذه العلة تفسره بعلة أخرى، ... وهكذا، تتسلسل العلل وترتبط أبسط الأشياء بأكبرها، كما اعتقدوا أن ما يجري من أحداث، يكون على أساس خطة لا يمكن للإنسان أن يغيرها، بل عليه أن يتبع إرادة القدر، وذلك على نحو ما نجده في مجال الأخلاق^(١).

إذا جعلت الرواقية القدر بمنزلة قانون يتحكم في الأحداث الكونية، وعرفوه بأنه عبارة عن سلسلة من الأسباب تتولد عنها الأشياء، أو العقل الذي وفقاً له يبقى العالم على حاله^(٢)؛ ومن ثم فإن كل تفاصيل العالم يحددها القدر (أي: الإرادة الإلهية)، التي تسمو فوق كل شيء سواء كان الأجرام السماوية أم الكائنات الحية والعاقلة^(٣).

وعلى الرغم من أن جميع الأشياء تخضع لقوانين كلية ضرورية، فإن الإنسان يستطيع أن يكتشف هذه القوانين، وأن يسير بمقتضاها، ولكن اتباعه لهذه القوانين ليس بطريقة آلية، كحركة الآلة؛ إذ إنه يشعر بسلوكه وبأفعاله؛ ومن ثم فإن الأفعال الإنسانية الإرادية تختلف عن الأفعال القسرية في أنها ذات أساس شعوري حي^(٤).

ولكننا نجد أنه على الرغم من النزعة المادية لدى الرواقيين، فإنهم قالوا إن الإله هو العقل المطلق، وإذا كان الإله عاقلاً، فالعالم مسير وفق العقل والحكمة؛ ومن ثم فالعالم يسير وفق الغاية، ويتجه نحوها بنظام وجمال وثبات، كما أن العالم خاضع لقوانين ثابتة، أي وفق قانون العلة والمعلول، والسبب والمسبب؛ لهذا السبب لم يكن الإنسان حراً؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يكون حر الإرادة في عالم مجبر، فعند القول إننا نختار هذا أو ذاك، فإن ما نختاره ونرضى به، نحن مضطرون إليه لا محالة^(٥).

(١) أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، مرجع سابق، ص ٢٧٨.
(٢) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، "من طاليس (٥٨٥ ق.م) إلى أفلوطين (٢٧٠ م) وبرقلس (٤٨٥ م)"، مرجع سابق، ص ١٧٥.
(٣) أ. هـ. أرمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة، مصدر سابق، ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٤) محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، أرسطو والمدارس المتأخرة، دار الوفاء لعنانيا للطباعة والنشر، ط ٢، الإسكندرية، ٢٠١٤ م، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
(٥) أحمد أمين & زكي نحيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

ووفقاً للرواقيين تسود العقلانية^(١) أو النزعة العقلية في الكون؛ إذ إن العقل الإلهي، أو الطبيعية، أو الإله هو الذي يسود في كل شيء، ويتحكم في كل حدث في الماضي والحاضر والمستقبل، وبه يحدث كل حدث، ويتم تحديد كل شيء؛ ذلك لأن الإله هو العلة الفاعلة في كل شيء؛ ولذلك فإن الكون والأحداث التي تحدث فيه كلها خيرة؛ مما يعني أن أي شيء يتعارض مع تنظيم الإله وتدييره هو في الواقع شر، وغير عقلائي، ويتعارض مع الطبيعة^(٢).

ولذلك تتمثل غاية الإنسان في العيش على وفاق مطلق مع العقل الإلهي؛ ومن ثمَّ ينبغي له إطاعة أوامر هذا العقل، ألا وهو القدر، ذلك الذي يحدد كل شيء في الكون، لكن يستطيع الشخص اختيار الطريقة التي يطبع بها^(٣).

ويتمثل تصور الرواقية للحرية، أن يعمل المرء بوعي، مع التصديق بما ينبغي له أن يعمل في أي حال، وهذا بالطبع يتناقض مع إيمانهم بالقدر^(٤).

وكان موقف الرواقيين بشأن الانتقادات المتعلقة بتصورهم للقدر هو الرفض، وقد حاولوا البحث عن وسيلة تخلصهم من هذه المشكلة الناتجة عن تصورهم للقدر، فجددوا أكدوا أهمية وجود مسئولية واقعة على الناس فيما يخص أفعالهم وسلوكهم، كما استشهدوا بقصة مختصرة عن زينون، تؤكد موقفهم من المسئولية^(٥)، إذ يروى أن زينون حينما كان يجلد عبدًا بسبب ارتكابه السرقة، توصل إليه العبد قائلاً: "لقد كانت السرقة على قدر مقدورًا!" فرد عليه زينون بقوله: "وكذلك كان الجلد عليك قدرًا مقدورًا!"^(٦).

وقد شبهت الرواقية الذين يرتكبون الآثام على غير إراداتهم (الأشرار) بالكلب الذي ربط إلي العربة، وأجبر إجبارًا على متابعة العربة حيثما سارت^(٧).

ولقد استطاع كريسيبوس التوفيق بين القدر والحرية الإنسانية، من خلال تمييزه بين نوعين من العلل. الأولى هي العلل المساعدة، بينما العلل الثانية هي العلل الكاملة، فكما أن حركة دوران الأسطوانة لا يفسرها الدفع الخارجي وحده، وهو ما يسمى العلة المساعدة، بل

(١) العقلانية Rationalism: نزعة أو مذهب تعني التعقل الملائم، باعتبار أن كل موجود معقول، وكل معقول موجود، كما أن العقلانية تشير إلى مذهب أهل العقل؛ إذ إن العقل شرط للإيمان، أي: الاستدلال بالأدلة العقلية على صحة العقائد الإيمانية. (انظر: عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مادة: العقلانية مرجع سابق، ص ٥٤٢).

(2) Tad Brennan: "The Old Stoic Theory of Emotions", OP. Cit, P. 22.

(٣) أ. هـ. أرمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة، مرجع سابق، ص ١٦٨.
(٤) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، ج ١، (اليونان وروما)، مرجع سابق، ص ٥٢١.
(٥) أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة، ترجمة: محمد طلبة نصار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٣٤٦.
(٦) ديوجينيس لائيرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج ٢، مصدر سابق، ص ١٣٢.
(٧) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة القديمة، ج ١، مصدر سابق، ص ٣٩٥.

كذلك شكل الأسطوانة، وهو العلة الكاملة، كذلك الحال بالنسبة للإنسان فإن الفعل الحر، هو العلة الأساسية الكبرى للفعل، وما التصور المحيط الذي يستولى على النفس إلا علة مساعدة، فلا يفسر الأفعال الإنسانية وحده؛ ومن ثم فالإنسان كأسطوانة خاضع للظروف الخارجية، أي خاضع لحكم القدر، لكن الأسطوانة ليس لها من حرية الاختيار التي لدى الإنسان، فهي لا تستطيع أن تكف عن الدوران، أما الإنسان فيمتاز بقدرته على التصديق أو الرفض، فالإنسان - إذن - حر وله اختيار، وليس القدر هو العلة الأساسية في حصول ما يحصل، بل هو مجرد علة مساعدة^(١).

كما أشار كريسيبوس إلى ضرورة وجود الشر في بنية الكون، بالاستناد إلى حجتين: الأولى هي أن الخير لا يوجد إلا بوجود الشر؛ ذلك لأن الخير ضد الشر، ولا وجود للخير إلا بضده، والحجة الثانية هي أن الله أراد الخير، ولكن الوصول إليه يتم عن طريق وسائل، وهي في حد ذاتها لا تخلو من الشر؛ ومن ثم فإن الشر يصبح ملازمًا للخير بالضرورة، ومن هذه الحجة نستنتج أن الشر الأخلاقي أو الرذيلة تعود إلى حرية الإنسان، وهنا يظهر التناقض فالحجة الأولى تشير إلى ضرورة وجود توازن متناغم، أي (الحتمية)، في حين أن الحجة الثانية تؤكد حرية الإنسان، وهذان تفسيران ينطويان على المفارقة^(٢).

وقد أوضح كليانثس^(٣) أنه لا شيء يحدث من دون الإرادة الإلهية إلا الأفعال التي يرتكبها الأشرار، وهذا يعني أن الشر من عمل الإنسان ولا دخل فيه للقدر^(٤)، وهنا تظهر المفارقة؛ إذ قال بالقدر من جهة، وقال بالحرية من جهة أخرى.

صار سينيكا فقد كغيره من الرواقيين؛ إذ إنه أعلى من شأن العقل، كما أنه أكد أن الطبيعة هي مصدر الخير والشر على حد سواء، فضلًا عن أنه دعا إلى مبدأ المساواة^(٥).

والسبب في اعتقاد الرواقيين بفكرة القدر هو إيمانهم بفكرة العناية الإلهية، فتلك الفكرتان تتبعان من شيء واحد، ألا وهو العقل المدبر للعالم الذي يتصف بالحكمة، ومراعاة مصلحة الإنسان، فكل شيء يكون مخلوقًا على أكمل وجه، كما عبر سينيكا عن ذلك بقوله إن المحن

(١) اميل برهيه: تاريخ الفلسفة، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ج ٢، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٧١، وأيضًا: عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، مرجع سابق، ص ١٣٤ - ١٣٦.

(٢) اميل برهيه: تاريخ الفلسفة، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ج ٢، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٣) كليانثس Cleanthes (٣٣١ - ٢٣٢ ق.م): من ممثلي المدرسة الرواقية، جاء بعد زينون الإكيتومي، عُرف بوجهة نظره المميزة بأن الفضيلة هي الخير الأسمى، ويبدو أنه أول من عرف الفضيلة بأنها العيش وفق الطبيعة، والتي يمكن تسميتها "العقل الكلي".

(CP: Thomas Mautner: A Dictionary of Philosophy, art: CleanthesOP. Cit, P. 73).

(٤) محمد غلاب: الفلسفة الإغريقية، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٥) ول وايريل ديوران: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ترجمة: محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الثالث، (١٠)، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ت)، ص ١٨٥.

ما هي إلا اختبارات؛ إذ إن المحن تحمل في ثناياها منحا، كما أن المحن والشدائد تساعدنا على تنمية قدراتنا على التحمل والصبر، وأيضاً على تنمية الفضائل الرواقية، وبذلك فإن جميع ما يصيب الإنسان من مصائب فهو مجرد فرص لتطوير الذات^(١)، ويظهر تأثير الرواقية بكل من سقراط وأفلاطون فيما يتعلق بفكرة الغائية، والاعتقاد بال العناية الإلهية، وبالقدر^(٢).

وأشار سينيكا إلى فكرة القدر بقوله: "...إن الله هو العلة الأولى في سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات، وإن القوة النهائية هي القدر، وهو علة لا ترد ولا تنقض، تصرف شئون البشر والآلهة على السواء، وتقود الطائعين وتجبر الغاضبين..."^(٣)، يتضح لنا من هذا النص تأكيد سينيكا فكرة القدر؛ إذ إن الكون كله يسير وفقاً لمبدأ الحتمية، أي وفقاً لسلسلة متتالية من الأسباب والنتائج، فالقدر بمنزلة قوة لا يمكن دفعها أو ردها.

كما انشغل سينيكا بحرية الإنسان، وذلك عن طريق قوله بفكرة الانتحار، فكان يتساءل: عن الطريق المؤدي إلى الحرية، والإجابة التي توصل إليها هي قطع أي عرق في الجسد^(٤)، ويقول: "... من الأسباب التي لا يستطيع الإنسان معها أن يتذمر من الحياة أنها لا تستبقه فيها رغم إرادته... كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك! ...، إن مشرطاً يشق لك الطريق إلى الحرية، ... أو هل ترى هذا النهر أو ذلك الحوض أو ذلك البحر؟، إن الحرية في أعماقها ..."^(٥).

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا النص تأكيد سينيكا على الحرية؛ فقد جعل الانتحار خير شاهد على حرية الإنسان، وهذا بالطبع يتعارض مع قوله بالقدر، كما أن قول سينيكا بالحرية من جهة، وبالقدر من جهة أخرى ينطوي على مفارقة.

أوضح إبيكتيتوس رأيه في مسألة القدر عن طريق قوله: "... تذكر أنك ممثل في مسرحية تمضي مثلما يشاء لها المؤلف، ... إذا راقه أن تلعب فيها دور شحاذ، فإن عليك أن تؤديه أداءً طبيعياً، وقد يريدك أن تؤدي دور أعرج أو مسئول حكومي، ... وأياً ما كان دورك، فهذه مهمتك: أن تجيد أداء الشخصية المقيضة لك، أما اختيار الشخصية، فليس هذا من شأنك ..."^(٦).

(١) أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة، مرجع سابق، ص ٣٤٩.
(٢) محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، أرسطو والمدارس المتأخرة، مرجع سابق، ص ٢٢٥.
(٣) ول وإيريل ديورانت: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، الجزء الثاني من المجلد الثالث، (١٠)، ص ١٨١.
(٤) أنتوني جوتليب: حلم العقل، "تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة"، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(٥) ول وإيريل ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٠، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، مصدر سابق، ص ١٨٣-١٨٤.
(٦) إبيكتيتوس: المختصر، مصدر سابق، ص ٣٠.

وهكذا يتضح لنا من قول إبيكتيتوس أنه يُشبه الحياة بمسرحية، والقدر أشبه بمخرج المسرحية، الذي يوزع الأدوار على الممثلين، وكل شخص في هذه المسرحية يؤدي دوره على أكمل وجه، وليس من حقه اختيار الدور، أو الاعتراض عليه، وإنما يكون الاختيار للمخرج، وهذا يؤكد اعتقاد إبيكتيتوس بمسألة القدر.

كما يقول في موضع آخر: " ... لا تطلب من الأشياء أن تجري مثلما تريد، بل اطلب أن تجري الأشياء مثلما تجري، وبذلك تمضي حياتك في سكون وسلام... " (١).

وفيما يتعلق برأي إبيكتيتوس عن حرية الإنسان واختياره، يقول: " ... من يريد أن يكون حرًا، إذن فليخف عن أن يرغب في أي شيء، أو يتجنب أي شيء في قدرة غيره، وإلا فإنه يكون لا محالة عبداً " (٢)، ونجد في هذا النص تأكيد إبيكتيتوس على حرية الإنسان التي تتبع من إرادته؛ ومن ثم فهو مسئول عن أفعاله، وهذا يتناقض مع قوله بالقدر.

كما رأى أن حريته هذه نعمة من نعم الإله لا يمكن أن يسلبنا إياها، ولكننا نجده من جهة أخرى يستسلم لقانون العناية الإلهية ويخضع له، وهذا بالطبع ينطوي على مفارقة (٣).

وقد ميز إبيكتيتوس بين الأشياء التي لنا حكم عليها، والأشياء التي ليس لنا حكم عليها، فالأشياء التي لنا حكم عليها مثل: إرادتنا، وحكمنا على الأشياء، وعملنا وفقاً لهذا الحكم الصحيح، بينما نجد أن الغنى، والصحة، والمكانة، هي أشياء خارجية نسبية ومتغيرة؛ ومن ثم فليس لنا حكم عليها (٤).

كما يشير ماركوس أوريليوس إلى فكرة القدر بقوله: " ... أعمال الآلهة مفعمة بالعناية، وأعمال القدر ليست منفصلة عن الطبيعة، أو عن النسيج الذي تنسجه العناية، من ذلك تصدر الأشياء جميعها... " (٥)، ويتضح من هذا النص ارتباط القدر بالعناية الإلهية، وبالاحتمية، وهو بمنزلة قانون يخضع له جميع الأشياء، وذلك وفق سلسلة من العلل والمعلولات.

يقول ماركوس أوريليوس: " ... أعلى مراتب الحرية والقوة هي ألا يفعل الإنسان إلا ما يرضي الإله، وأن يتقبل كل ما يقسمه الإله له... " (٦)، يتضح من هذا النص توفيق ماركوس ماركوس أوريليوس بين القدر من جهة، وبين حرية الإرادة من جهة أخرى؛ مما يدل على

(١) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٣) عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٤) أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، مرجع سابق، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٥) ماركوس أوريليوس: التأملات، مصدر سابق، ص ٣٨.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٢.

المفارقة؛ لأن هذه الحرية التي يقول بها ليست كاملة، بل محكومة بقوانين العناية الإلهية والقدرة، فكيف يشعر الإنسان بحريته في ظل خضوعه للقدرة؟

كان تصور الرواقية للقدرة يحمل الكثير من التناقض، فإذا كان كل شيء يعمل وفق القدرة، فحينئذ نتساءل: ما الفائدة من توجيه النصيح، أو محاولة إصلاح النفس، أو الاقتداء بنموذج صالح طالما كان الإنسان ليس بمقدوره أن يبدل من نفسه أو من أي شيء حوله؟ وإذا كانت كل الأشياء تعمل وفقاً لسلسلة من الأسباب والنتائج، وإذا كان العقل نفسه مادياً كما رأى الرواقيون؛ فكيف إذن لأفكارنا ومشاعرنا أن تتحرر من قيود هذه الحتمية؟؛ بالطبع كان فكر الرواقيين يتصف بطابع المفارقة، وأبرز دليل على ذلك هو قولهم إن بعض الأشياء تقع تحت تصرفنا وسيطرتنا، وبعضها الآخر ليس كذلك، فإذا صدق قولهم هذا عن القدرة، فلم يعد هناك شيء نقوم به وفقاً لإرادتنا^(١)، ولذلك يُلحق الإنسان الحكيم حياته بحياة الكون كله، بل ويدرك نفسه بوصفه مجرد ترس في الآلة الكبرى^(٢).

ولذلك كان الشخص الحكيم يرضى بما قدره له الإله، وما رسمه له القدرة بحكمته، وهذا يتناقض مع اتصافه بالحرية الكاملة، وهكذا نجد مفارقة في القول بالجبرية من جهة، والقول بحرية الإرادة من جهة أخرى، ولكن استطاعت الرواقية أن تتجاوز هذا التناقض فيما بعد عن طريق إدخالها معنىً فلسفياً جديداً، ألا وهو الواجب، الذي يعني أن للإنسان إرادة حرة، ولكن واجبه يحتم عليه أن يستخدمها على نحو يقرب بينها وبين الإرادة الإلهية^(٣).

وفيما يتعلق بتفسير الرواقية لوجود الشر في العالم، فنجد أنه ينطوي على مفارقة؛ إذ إنه يتناقض مع فكرة الحتمية، والقدرة، والمعقولية، فقد فسرت الشر بأنه نقص في الفرد يذوب ويتلاشى في كمال الكل^(٤).

إلا أن آراء الرواقية عن القدرة كانت عرضة للكثير من الانتقادات، وكان هذا الهجوم من جانب بعض معارضي الرواقية، إذ قالوا - وفق تصور الرواقية للقدرة - إن الإنسان غير مسئول عن أفعال الشر التي يرتكبها، ويجب أن تقع المسؤولية على تلك الضرورة الحتمية الناتجة عن القدرة، لأنها تتحكم في كل شيء، ووفقاً لهذه الضرورة يحدث كل شيء، ونتيجة لذلك فإن العقوبات التي يفرضها القانون على المجرمين ليست عادلة، ما دام الناس لا يرتكبون الشرور بمحض إرادتهم، ولكن القدرة هو الذي يحملهم على ذلك^(٥).

(١) أنتوني جوتليب: حلم العقل، "تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة"، مرجع سابق، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٢) وولتر ستينس: تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص ٢٨٣.

(٣) وليم وود ثورب تارن: الحضارة الهلنستية، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

(٤) محمد عليّ أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، أرسطو والمدارس المتأخرة، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٥) أنتوني جوتليب: حلم العقل، "تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة"، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

ولقد وقعت الرواقية في عدة أخطاء فيما يتعلق بمجال الأخلاق، ومنها أنها بحثت عن الخير والسعادة في طبيعة الفرد منعزلاً عن ظروف بيئته؛ ولذلك فإنها أخطأت في فهم تأثير المجتمع وقوانينه في الإنسان، وعدتّها أموراً اعتبارية، ولم تبحث في تأثيرها في الأخلاق، فضلاً عن أن فكرتها في وجود عدالة كونية وقدر حتمي لا يمكن تعديله أو التأثير فيه كان لها أثر سلبيّ في موقف الإنسان بالنسبة للأوضاع الخارجية، إلا أنها امتازت بفكرتها عن أخوة البشر التي كان لها تأثيرها في التشريع الروماني^(١).

وهكذا يتضح لنا قول الرواقية بالقدر من جهة، وبالحرية من جهة أخرى، وهو ينطوي في حد ذاته على مفارقة، كما أن نسبتهم الشر إلى الإنسان يتناقض مع قولهم بالقدر.

(١) أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

نتائج البحث:

يتضح لنا مما سبق أن الأخلاق الرواقية قد اشتملت على مفارقات عدة، وهي على النحو الآتي:

أولاً: يعد مبدأ "العيش وفق الطبيعة" بمنزلة الأساس الذي ارتكزت عليه الأخلاق الرواقية، ويعني أن يسير الإنسان في أفعاله، وفق العقل؛ إذ احتل العقل مكانة كبيرة في الأخلاق الرواقية، ولكننا نجد أن قول الرواقية بالعقل انطوى على مفارقة؛ إذ إنه يتعارض مع نزعتهم المادية التي رأوا فيها أن كل شيء في الكون أو العالم بمنزلة جسم، أي أنه شيء مادي، سواء أكان النفس، أم الإله، أم العقل.

ثانياً: تتضح المفارقة في مفهوم الرواقية عن الفضائل؛ وذلك عن طريق قولهم إن الإنسان إما أن يكون فاضلاً تماماً، أن يكون شريراً تماماً؛ فلا يوجد توسط بين الفضيلة والرذيلة؛ ومن ثم تصبح جميع الفضائل متساوية، وكذلك جميع الرذائل متساوية؛ إذ إن الفضيلة هي وحدها خير، والرذيلة هي وحدها شر؛ فلا يوجد أي تفاوت بين الخيرات، أو الشرور؛ ومن ثم تصبح الفضائل كلها أموراً مطلقة، ومن المفارقات أيضاً قولهم: إن الفضيلة وحدها تكفي لتحقيق الصداقة؛ ومن ثم يتضح لنا أنهم اقتصروا في مفهوم الصداقة على الحكماء فقط.

ثالثاً: نظرية الرواقية في الانفعالات تتطوي على مفارقة؛ إذ إنها تتعارض مع قولهم بالصداقة، وتكوين علاقات بين الناس في المجتمع بما تتطوي عليه من الحب. ويتضح لنا أيضاً أن الرواقية كانت بمنزلة حرب ضد الانفعالات والعواطف؛ إذ إنها على الرغم من تأكيدها أهمية تجرد الحكيم من أي عاطفة أو انفعال، فإنها وصفت الإنسان المرذول بالخلو التام من الانفعالات، مما ينطوي ذلك على المفارقة.

رابعاً: لقد تضمنت أوصاف الحكيم الرواقية مفارقات عديدة، مثل: قولهم إنه إنسان كامل (أو بمنزلة إله)، لا يرتكب أي خطأ أبداً، ويمتلك جميع الفضائل، وهو خالٍ من أي انفعال أو عاطفة، وعديم الشعور، وعديم الشفقة، وهو وحده ينفرد بالقدرة والغنى الكامل، والحرية المطلقة، والسعادة الكاملة، وأيضاً هو وحده من يمتلك الجمال، وهذا يتعارض تماماً مع قولهم بمبدأ المساواة بين الناس جميعاً، وذلك بسبب تمييزهم بين الحكيم وما اشتملت عليه أوصاف عامة الناس.

خامساً: ومن المفارقات الرواقية أيضاً الجمع بين القول بالقدر من جهة، وحرية الإرادة من جهة أخرى، كما أن نسبة الشر للإنسان يتعارض مع القول بالقدر.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر الأجنبية:

- Cicero: On Moral Ends, edited by: Julia Annas, Translated by: Raphael Woolf, Cambridge University Press, New York, 2004.
- Epictetus: Moral Discourses "Enchiridion and Fragments", Translated and Introduced by: Elizabeth Carter, J. M. Dent & Sons LTD, London & New York, 1957.
- Marcus Aurelius: Meditations, J. M. Dent & Sons LTD, London & New York, 1948.
- Seneca: "of A Happy Life", in: The Wisdom of the Stoics "Selections from Seneca, Epictetus and Marcus Aurelius", edited and with an Introduction by: Frances and Henry Hazlitt, University Press of America, London, 1984.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Brennan, Tad: "The Old Stoic Theory of Emotions", in: The Emotions in Hellenistic Philosophy", edited by: Juha Sihvola & Troels Engberg– Pedersen, Springer, Kluwer Academic Publishers, 1998.
- Kenny, Anthony: Ancient Philosophy, Vol.1, Clarendon Press, Oxford, New York 2004.
- Lokke, Havard: Knowledge and Virtue in early Stoicism, Springer Dordrecht Heidelberg, New York & London, 2015.
- Long, A. A.: Stoic Studies, University of California Press, London & England, 2001.
- Stephens, William O.: Stoic Ethics "Epictetus and Happiness and Freedom, Continuum International Publishing Group, London & New York, 2007.

ثالثاً: المعاجم والموسوعات الأجنبية:

- Audi, Robert: The Cambridge Dictionary of Philosophy, Second edition, Cambridge University Press, New York, 1999.
- David Sacks: Encyclopedia of the Ancient Greek World "Revised Edition", Revised by Lisa R. Brody, Facts on File, Inc., New York, 2005.
- Mautner, Thomas: A Dictionary of Philosophy, Blackwell Publishers Ltd, Oxford, 1996.

رابعًا: الدوريات الأجنبية:

- White, Nicholas P.: "The Basis of Stoic Ethics", in: Harvard Studies in Classical Philology, Published by: Department of the Classics, Harvard University, Jstor, vol. 83, 1979.

خامسًا: المصادر الأجنبية المترجمة للعربية:

- إيكيتوس: المختصر، دراسة وترجمة: عادل مصطفى، مؤسسة هندائوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م.
- أرمسترونغ، أ. ه.: مدخل إلى الفلسفة القديمة، ترجمة: سعيد الغانمي، دار كلمة، أبو ظبي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٩م.
- أوريليوس، ماركوس: التأمّلات، ترجمة: عادل مصطفى، مراجعة وتقديم: أحمد عثمان، مؤسسة هندائوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م.
- ديورانن، ول وايريل: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ترجمة: محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الثالث، (١٠)، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ت).
- رسل، برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، "الفلسفة القديمة"، ج١، ترجمة: زكي نجيب محمود، مراجعة: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م.
- رسل، برتراند: حكمة الغرب، ج١، ترجمة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد: ٦٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م.
- سارتون، جورج: تاريخ العلم، "العلم القديم في العصر الذهبي لليونان"، ترجمة: لفي من العلماء، إشراف: إبراهيم مدكور & آخرون، ج٣، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م.
- سينيكا: هرقل فوق جبل أوبتا، ترجمة: أحمد عثمان، مراجعة: عبد اللطيف أحمد على، وزارة الأعلام، الكويت، ١٩٨١م.
- لائيرتيوس، ديوجينيس: حياة مشاهير الفلاسفة، ج٢، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨م.

سادسًا- المراجع الأجنبية المترجمة للعربية:

- برهيه، اميل: تاريخ الفلسفة، الفلسفة الهيلنستية والرومانية، ج٢، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م.

- تارن، وليم وود ثورب: الحضارة الهلنستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكيّ عليّ، تقديم: مصطفى النشار، المركز القومي للترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠١٥م.
- جوتليب، أنتوني: حلم العقل، "تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة"، ترجمة: محمد طلحة نصار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠١٥م.
- ستيس، وولتر: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م.
- كريسون، أندريه: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ترجمة: الإمام عبد الحليم محمود & الأستاذ أبو بكر ذكرى، مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- كوبلستون، فردريك: تاريخ الفلسفة، ج ١، (اليونان وروما)، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢م.

سابعًا- المراجع العربية:

- أحمد أمين & زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٣٥م.
- أحمد عبد الرحيم أبو زيد: عن الصداقة لثيشرورن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، دار ومطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥م.
- عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، "من طاليس (٥٨٥ق.م) إلى أفلوطين (٢٧٠م) ويرقلس (٤٨٥م)"، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت، ١٩٩١م.
- محمد عليّ أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفيّ، أرسطو والمدارس المتأخرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط ٢، الإسكندرية، ٢٠١٤م.
- محمد غلاب: الفلسفة الإغريقية، ج ٢، ط ١، القاهرة، ١٩٣٨م.
- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م.

ثامنًا- المعاجم والموسوعات العربية:

- إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثالث، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت.).
- جميل صليبا: المعجم الفلسفيّ، ج ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٦م.

- جوناثان رى & وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل & وآخرون، مراجعة وإشراف: زكيّ نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠١٣م.
- عبد المنعم الحفنيّ: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط ٣، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- مراد وهبه: المعجم الفلسفيّ، دار قباء الحديثة، ط ٥، القاهرة، ٢٠٠٧م.